ASJP Algerian Scientific Journal Platform

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

ISSN:2800 – 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

المجلد: 01، العدد: 02	ذي الحجة 1443هـ/جويلية 2022م	الصفحات: 143–160

الهجرة وأثرها الاجتماعي والثقافي على التعليم الإسلامي في بلاد الحبشة

Immigration and its social and cultural impact on Islamic education in Abyssinia

محمد الدام *

جامعة العربي التبسي – تبسة (الجزائر)

mohamed.eddamme@univ-tebessa.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال
2022/05/04
تاريخ القبول
2022/06/30

الكلمات المفتاحية:
بلاد الحبشة، الأثر الاجتماعي، الأثر الثقافي، التعليم الإسلامي.

الملخص:

تُعد الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا ووسطها إحدى الوسائل المهمة لانتشار الإسلام، وكانت هجرة الصحابة الأوائل إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من أولى الهجرات، كما كانت إفريقيا جنوب الصحراء مثالا لانتشار الإسلام السلمي وامتداده عبر العصور، وقد تميزت منطقة شرق إفريقيا السباقة في وصول الإسلام بحكم الموقع الجغرافي، وخاصة بلاد الحبشة التي خلدت تاريخ الهجرة من أجل الدين في أرضها مع اسم الملك العادل النجاشي أصحمة بن أبجر رحمه الله.

ومن أهم الوسائل لدخول الإسلام إلى إفريقيا وتوغله في الوقت المبكر الهجرات المتعاقبة من شعوب شبه الجزيرة المسلمة لأسباب مختلفة إلى إفريقيا وامتزاجهم بهم تدريجيا حسيا ومعنويا بالتزاوج دمويا وبتحويلهم من الجاهلية إلى هدي الإسلام ثقافيا واجتماعيا وذابت عروبتهم في الأفارقة، وبقي الدين الذي نشروه إلى يومنا هذا.

Article info

Received:
2022/05/04
Accepted:
2022/06/30

Abstract:

The Arab migrations to East and Central Africa are one of the important means for the spread of Islam. The migration of the first Companions to Abyssinia in the fifth year of the Prophet Muhammad's mission, may God's prayers and peace be upon him, was one of the first migrations. Sub-Saharan Africa was an example of the peaceful spread and

* المؤلف المرسل

extension of Islam through the ages. East Africa was the first in the arrival of Islam by virtue of its geographical location, especially the country of Abyssinia, which immortalized the history of migration for the sake of religion in its land with the name of the just king, the Negus, Ashama bin Obhur, may God have mercy on him.
One of the most important means of Islam's entry into Africa and its penetration at an early age is the successive migrations of the peoples of the Muslim peninsula for various reasons to Africa and their gradual mixing with them both emotionally and morally by bloody intermarriage and their transformation from ignorance to the guidance of Islam culturally and socially.

Key words:
Abyssinia, social impact, cultural impact, Islamic education.

مقدمة:

تعتبر هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة وإخفاق زعامات قريش في إخراج المسلمين منها، بعد مفاوضات عَقَدية بين الصحابة والمشركين في بلاط النجاشي، البداية الفعلية لانتصار دعوة الإسلام وانتشارها، حتى ظهرت روايات تثبت إسلام ملك الحبشة النجاشي، وبلغت دعوة الإسلام بعد سنوات قليلة أرضٍ واسعةٍ وعالم جديد.، فكانت إفريقيا (جنوب الصحراء) نموذجا حي لانتشار الإسلام السلمي، وامتداده عبر العصور، وتميز شرق إفريقيا بالسبق إلى الإسلام بحكم موقعه الجغرافي، وبخاصة الحبشة التي خلدت تاريخ الهجرة من أجل الدين في أرضها مع اسم الملك العادل النجاشي، إذ نجد أن العرب قد تمكنوا في سنوات قليلة من تكوين إمارات إسلامية عامرة لعصور طويلة بداية من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وبعد زوال معظم تلك الإمارات بقي أثر الإسلام دين الشعوب الإفريقية إلى يومنا هذا.

انتشر الإسلام في شمال إفريقيا عبر فتوحات قادها الصحابة الأخيار، أما في جنوب القارة فقد كان من خلال أودية جديدة، وطرقا حديثة ابتكرها المسلمون لمواصلة مسيرة الهدي المحمدي في ربوع القارة الإفريقية، فكل مسلم هناك بمثابة سفير وداعية للدين الإسلامي. سلك الدعاة إلى الإسلام في القارة الإفريقية طرق كثيرة، لكن هدفها كان واحد وهو إعلاء راية الإسلام في تلك الربوع، ورغم ضعف المصادر التي تتحدّث عن هذا الأمر فإن المتوفر منها يؤكّد أن الإسلام وصل هناك دون فتوحات. وصل

الإسلام هناك، من خلال مجموعة من الزهاد والعباد وأهل النسك والصلاح، الذين خيّروا التنقل من منطقة إلى أخرى على البقاء في مكانهم جامدين، تنقلوا وهم حاملين معهم الزاد القليل والإيمان الكبير بتعاليم دينهم، فباشروا بهدي الناس ونشر الإسلام بالكلمة وحسن الخلق. جاء هؤلاء الدعاة حاملين معهم تعاليم الدين الإسلامي، الذي كان بمثابة المنقذ لشعوب القارة الإفريقية من جاهلية الوثنية التي كانوا متردّين فيها، ومن التقاليد البالية التي قيَّدوا أنفسهم بها، ومنحهم طيب العيش الكريم وراحة البال.

ولتبيان أثر الهجرة الاجتماعي والثقافي والتعليم الإسلامي في بلاد الحبشة يمكننا طرح الإشكالية التالية: كيف أثرت الهجرة في بلاد الحبشة اجتماعيا وثقافيا؟ وما هي عوامل ووسائل انتشار التعليم الإسلامي؟ وكيف كان طرق التعليم في بلاد الحبشة؟

1. أصل التسمية: بلاد الحبشة (أثيوبيا):

لم تكن كلمة "أثيوبيا" قديما تطلق على ما يعرف ببلاد الحبشة، فقد أطلقها قدماء اليونان على البلاد المتاخمة لحدود مصر الجنوبية مما يلي الشلال الأول، وتعني كلمة أثيوبيا باليونانية ذو البشرة السوداء، وهو ما كان يسميه الفراعنة "مملكة كوش" أو بلاد النوبة، فتشمل جزءا من جنوب مصر وشمال السودان وأثيوبيا وارتيريا والصومال وجيبوتي، ويتردد سيربدج في معرفة هؤلاء القدماء عن الحبشة الحقيقية وموقعها[1].

وكان أول من أطلق كلمة "أثيوبيا" على الحبشة هم اليونانيون الذين ترجموا الإنجيل من اليونانية إلى اللغة الحبشية (الجعزية)، حيث ترجموا كلمة "كوش" الواردة في العهد القديم إلى "أثيوبيا"[2]، وأطلقه الأثيوبيون على بلادهم التي يسمونها الحبشة في نفس الوقت، واشتهر استعمال تلك النسخة في مملكة أكسوم، ويحتمل أن يكون ذلك فور دخول النصرانية إلى الحبشة في القرن الرابع الميلادي، وأما الاسم الذي كان يعرف به القطر الذي يضم مملكة أكسوم كمركز الملك هو "الحبشة"، وقد حرفه الأوروبيين إلى "أبيسينيا" (Abyssinia)[3].

فقد اطمأن الأحباش إلى اسم "أثيوبيا" وأطلقوه على بلادهم أسوة أو تيمنا بذكره في التوراه[4]، على أن هناك عاملا آخر جعلهم يختارون اسم أثيوبيا وهو كراهيتهم لكلمة الحبشة ذات الجذور العربية، لأنها تعني الأخلاط من الناس ويقصد بهم النواة القديمة للشعب والتي نشأت نتيجة للامتزاج الذي تم بين العناصر السامية الوافدة من شبه الجزيرة والحمايين الأصليين[5].

فكلمة أثيوبيا قديما تاريخيا أعم من كلمة الحبشة، لأن مدلولها كان يشمل أقطارا كثيرة من بينها بلاد الحبشة، أما بعد إطلاق كلمة أثيوبيا على القطر الذي يحكمه نصارى الحبشة صارت أضيق من مدلول الحبشة التي كانت أوسع من بلاد النصارى التقليدية، بل تشمل غيرها من الأقطار المجاورة (حاليا جنوب مصر وشرق السودان وإثيوبيا وارتيريا والصومال وجيبوتي). هذا تاريخيا، أما الآن فالحبشة هي دولة إثيوبيا الحالية لاستقلال المناطق الأخرى بأسماء أخرى رسمية.

2. عوامل انتشار الإسلام في بلاد الحبشة:

بعد انهزام جيوش الحبشة في جنوب الجزيرة العربية وجلائهم عنها بضربات الفرس بعد حادثة الفيل، خيم على الحبشة عهد العزلة الطويلة وتدهورت مملكة أكسوم بعوامل مختلفة، منها قيام الدولة الإسلامية التي قطعت علاقة الدولة البيزنطية بالحبشة، وزحف قبائل البجة من مملكة النوبة وانتشارها إلى شاطئ البحر الأحمر مما اضطر أكسوم إلى الانحسار والضعف ما بين القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادي وخاصة بعد موت الملك العادل المسلم النجاشي أصحمة عام 632م، فتغلبت عليها قبائل الأجاو الحامية التي كانت تعيش في المناطق الجبلية في سمين وجوجام، وتمكنت أسرة يهودية منها من اعتلاء عرش الحبشة ودمرت كنيسة أكسوم، ثم أسست مملكة زاجوي التي حكمت ما بين (1137-1270م)[6].

ويعتبر المؤرخون هذه العصور ما بين (349-669هـ/960-1270م) العصر الذهبي لانتشار الإسلام في جنوب وشرقي الحبشة، وتأسيس ممالك إسلامية ذات سيادة بالمنطقة وازدهارها[7].

فكان لانتشار الإسلام في أقطار الأرض كقوة دينية وسياسية، ولسرعة امتداده خلال قرن واحد الأثر الفعال في تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في كل الجهات من ضمنها الحبشة.

مهدت هذه الأوضاع لتوغل الإسلام وسهولة انتشاره ليس في المناطق الساحلية والجزر من أرخبيل دهلك إلى ميناء زيلع وبربره فحسب، بل إلى داخل المقاطعات الحبشية ووصل إلى إقليم شوا جنوبا وإلى قبائل البجة والنوبة شمالا[8].

فقد كان لانتشار الإسلام امتدادا وزحفا عاما تمتد به القبائل الإسلامية دون تنظيم سياسي أو عسكري على خلاف ما كان في جبهات الفتوحات الإسلامية في جبهات بلاد الفرس والروم وبلاد ما وراء النهر وشمال إفريقيا، حيث كان النفوذ يحول هذه البلاد إلى دولة الإسلام التابعة لخليفة المسلمين[9].

وفيما يتعلق بانتشار الإسلام في الحبشة فقد أشار المستشرق البريطاني توماس أرنولد إلى أنه وحتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لم يكن سوى عدد قليل من الأسر الحبشية قد دخلت في الإسلام، وأن تأسيس دولة عربية في الحبشة أدى إلى فصل المناطق الساحلية عن مملكة الحبشة المسيحية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[10]. في حين هناك من يشير إلى قيام مملكة شوا في الحبشة (284-684هـ/896-1289م) على يد مهاجرين من بني مخزوم بزعامة ود بن هاشم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[11]، كما أن تأسيس مملكة أوفات الإسلامية في الحبشة (684-817هـ/1258-1415م) وهي من ممالك الطراز الإسلامي وذلك في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[12].

وكان لممالك المسلمين في الحبشة الدور الفاعل في نشر الإسلام وصد هجمات المملكة المسيحية من خلال خوض الكثير من المعارك بين الطرفين، والتي كان من بينها تلك المعركة التي تزعمها رجل اسمه أبو عبد الله محمد سنة 699هـ/1299م ضد (ودم أرعد) ملكة الحبشة آنذاك[13]، والتي انتهت بانتصار المسلمين، إلا أن الاضطهاد الذي مارسه ملوك الحبشة ضد المسلمين استمر حتى وصل لحد قيام ملك الحبشة سيف أرعد 1342-1370م بقتل من رفض أن يتنصر من المسلمين في بلاده[14]، كما استمر ذلك الاضطهاد في عهد زرء يعقوب (تولى العرش سنة 838هـ/1434م) والذي كان أشد حقدا على المسلمين في الحبشة، ففرض على مسلمي مملكة هدية أن يدفعوا له جزية سنوية تتمثل بتقديم فتاة مسلمة يحولها إلى النصرانية ويبقيها عنده كجارية، كما منعهم من لبس عدة الحرب ومن ركوب الخيل[15].

ورغم تأكيد المستشرق البريطاني توماس أرنولد إلى أن انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء تم بالطرق السلمية كما في بقية المناطق، إلا أن ما يؤخذ عليه هو قوله: "أن النار وسفك الدماء طالما ميزا خطة الجهاد، التي دُبرت لاستئصال شأفة الكفار"[16]، وقوله أيضا: "ومع أن الإسلام كثيرا ما شهر السيف كأداة يستعين بها على قدم فتوحاته الروحية، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه في معظم الحالات جهود سلمية في نشر الدعوة"[17]، إلا أن ذلك الأمر يكاد يكون قليل جدا في جنوب الصحراء، فلم يحصل أن استخدمت القوة في دخول الإسلام إلى إفريقيا سوى ما حصل في بلاد النوبة حينما انتصر عليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ودفعوا الجزية[18]، أما ما حصل في الحبشة من قتال بين ممالك المسلمين هناك والمملكة المسيحية لم يكن ليحصل لولا الهجمات الكبيرة التي شنها النصارى هناك ضد المسلمين الذين تعرضوا للقتل والسلب والنهب وحرق المدن فما كان منهم سوى الرد على ذلك الاعتداء[19].

وهناك عوامل أخرى هامة ساعدت على انتشار الإسلام في إفريقيا (بلاد الحبشة)، نذكر أهمها:

– تفوق المسلمين الفكري والخُلقي: دفع المسلمين هذا التفوق الفكري والخلقي غلى أن يكونوا قدوة يُحتذى بها من ناحية الثقافة والأخلاق، فأصبح اعتناق الإسلام مفخرة، كما أصبح يعني الالتزام بالنظافة والصدق والأمانة، وغير ذلك من الصفات الحسنة التي يُحتم الإسلام على اتباعه التحلي بها.

– موقف الإسلام من التمييز العنصري: عندما اصطنع القساوسة والمسيحية التمييز العنصري، لجأ كثير من الأفارقة إلى الإسلام هروباً من التفرقة بين البشر، فالإسلام لا يعرف عنصرية ولا يفرق بين البشر، ويجعل الناس سواءً كأسنان المشط كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولا يُميز الواحد منهم عن الآخر إلا عمله وتقواه[20].

– الإسلام فكراً محلياً وثقافة قومية: من الأسباب التي يسرت انتشار الإسلام في أفريقيا، ذلك هو أن هذا الدين سرعان ما أصبح فكراً محلياً وثقافة قومية، فلم يصبح كسواه من الأديان التي عاشت قروناً وهي غريبة عن البلدان التي اقتحمتها. إذ أن المواطنين سرعان ما أصبحوا قادة الفكر في بلدانهم وأصحاب الدعوة بها.

– انحدار الحياة الروحية في الكنائس: مما ساعد على انتشار الإسلام، عندما بدأت الحياة الروحية في معظم الكنائس قد انحدرت إلى أقصى درجات الانحطاط، وانتشر الفساد الأخلاقي كالرشوة والزنا، وغيرها من الرذائل بين قساوسة الكنيسة، بل ان كثيراً من المسيحيين الأفارقة وقعوا فيما وقع فيه رجال الكنيسة من أخطاء.

– انتشار اللادينية عند دخول الإسلام: إن الذي لا يعتنق ديناً، يمكن جذبه نحو الأديان الأخرى بسهولة، وهكذا دخل الإسلام هذا القطاع من إفريقيا في وقت مبكر لم يكن بها أي دين ينازعه، بل كانت هناك الوثنية، ومن هناك كانت دعوة الداعي المسلم سريعة الأثر والنتائج.

– صورة الداعي المسلم ونشاطه: كان للداعي المسلم بعض السمات تجذب الناس إليه، ملابس فضفاضة نظيفة، وأخلاق نبيلة سامية، وشخصية مؤثرة جذابة، وكرم وإيثار، يباشر عمله من خلال تجارة يزاولها، أو أحياناً يتفرغ للدعوة والتعليم. فإن كان تاجراً كان الصدق مبدأه والأمانة دستوره، وإن كان معلماً جمع حوله مجموعة من الأطفال والشبان، سرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم ممن لا يتبعونه، وهذا يجذب له نفراً جديداً كل يوم[21].

3. أثر الهجرة الاجتماعي والثقافي على التعليم في بلاد الحبشة:

1.3. الأثر الاجتماعي:

كانت الشعوب الحبشية ما بين وثنية لادينية في شرقها وجنوبها وغربها، ونصارى متمركزين في الهضبة الشمالية، فلما جاء المسلمون إلى القسم الوثني حاملين حضارة إنسانية لم يصعب عليهم الانسجام معهم لأن عاداتهم الفطرية كانت قريبة للأخلاق الإسلامية السمحة، فإن الشعوب المسلمة الحالية في الحبشة يرجع عدد كبير منهم إلى المجتمع العربي النازح من الجزيرة العربية، ويلاحظ أن قبائل كثيرة تنسب نفسها إلى الأصل العربي.

فمثلا في وللو توجد الأسرة المعروفة بمحمدوش يرجع إليها عدد كبير من الوجهاء والأمراء والزعماء المسلمين في وللو وتنتسب إلى الأصل العربي، والجبرتيون والأشراف والشعوب والقوميات والقبائل التي تعرف بقدم الإسلام فيها، مثل أوغوبا وسلطي وأدري وكثير من بطون قبائل عفر وأورومو والصومال، لا يشك أحد أنهم من أصول القبائل المسلمة النازحة من جنوب الجزيرة، وامتزجت وذابت في المجتمع الحبشي.

ناهيك عن العلاقة المستمرة مع العرب لمجاورتهم إذ ليس بينها وبين الحبشة إلا بحر القلزم الذي يصل تقارب شاطئيه نحو 20 ميلا في أقرب مضيقه وهو مضيق باب المندب مما سهل تلاقي الشعوب باستمرار، وهذا بالطبع هو السبب الرئيس لانتشار الثقافة

الإسلامية والعربية، مثل اللهجة اليمنية لدى المتحدثين باللغة العربية وأنماط الحياة كالملابس، فهناك مناطق كإقليم هرر وداوي اللباس الشعبي فيها الإزار مثل اليمن ولا يلبس البنطلون إلا في المدن، والطواقي والعمائم التي يلبسها العلماء والدعاة بل والوجهاء يمنية بوضوح، ثم انتشر الزي السعودي منذ العقدين الأخيرين، والجلسات والمراسيم الشعبية يمنية الشكل في غالبها حتى أصبحت البيوت تفرض صالاتها بكنبات تعرف بالمجلس العربي[22].

ومن الأثر الاجتماعي العمل الخيري التعاوني وخاصة في إقامة الدين ورعاية مؤسساته من مساجد ومدارس القرآن الكريم، ودور الأيتام، والإشراف على مقابر المسلمين لعدم أي دعم من الحكومة في هذا الأمر، وكان تجار اليمن قدوة لهذا العمل.

2.3. الأثر الثقافي:

كان للدعاة دور في نشر الإسلام من خلال استخدامهم الرفق والأناة مع الأفارقة مما ساعدهم في نجاح مسعاهم، أكثر من أي أسلوب آخر ينطوي على العنف[23]، كما أن العمل في التجارة ساعد في عملية نشر الإسلام لما لتلك المهنة من خصائص تجعل صاحبها في تماس مباشر بالناس، فقد شاهد الأفريقي أمامه تجار صادقين في تعاملهم بعيدين عن الغش والمكيدة فتقربوا منهم وتداخلوا معهم وتعرفوا على ديانتهم واقتنعوا بها فدخلوا فيها، فضلا عن ذلك فإن للحج دو فاعل في نشر الإسلام في إفريقيا من خلال ما يحمله الحاج عند عودته لبلده من مفاهيم جديدة عن الإسلام حصل عليها عند لقائه بعلماء الأمة الإسلامية[24].

وإلى جانب هؤلاء يأتي طالب العلم الذي كان قد تفقه في الدين على يد فقهاء المغرب أو الحجاز أو مصر وعاد لبلاده ليقوم بالنصح والإرشاد والتعليم، الأمر الذي جعله يصل إلى مكانة عالية بين السكان لدرجة أنه إذا ما دخل في قريتين متحاربتين فلن يمسه أحد بأذى[25]، كما أن مكانة ذلك الطالب الذي سيصبح فقيها ومعلما لأبناء بلده

سترتفع لما يقدمه من نصح وإرشاد للسكان، فضلا عن كونه الوحيد المخول لكتابة التعاويذ وآيات القرآن الكريم ووضعها في قطع من الجلد أو القماش وتُعلق على الأذرع أو حول العنق (وهي مهمة يستطيع أن يستغلها كوسيلة لإكثار عدد المتحولين إلى الإسلام)[26].

من أهم آثار انتشار الإسلام في الحبشة التعليم الإسلامي المنتشر في أنحاء البلاد، فبالإضافة إلى دور العلماء والدعاة الحبشيين الذين رحلوا إلى الحجاز واليمن لطلب العلم ثم نقلوه إلى بلادهم، هناك مهاجرون من تلك البقاع إلى الحبشة ممن استقروا فيها ونشروا العلوم الشرعية في ربوعها[27].

ورغم قلة المصادر عن أوضاع الحركة العلمية للمسلمين في الحبشة لفترة ما بين القرن العاشر والثالث عشر الهجريتين، إلا أننا من خلال ما سجل في القرن الثالث عشر الهجري (عصر ازدهار الحركة العلمية في الحبشة) نعرف أن مجالس العلماء في الحبشة كانت بمثابة مدارس العلوم على منوال المدارس التي كانت في العالم الإسلامي في عصر ما قبل التعليم النظامي.

4. وسائل انتشار الإسلام:

أجمع المؤرخون أن الإسلام انتشر في أفريقيا بالوسائل السلمية، صحيح أنه كان في بداية العصر الإسلامي الأول حركات فتح وتوسع وجهاد من المسلمين على القارة الأفريقية، لكن الانتشار الفعلي للإسلام كان بالوسائل السلمية، وأهم هذه الوسائل:

– **الفتح الإسلامي**: لا شك أن الفتوحات الإسلامية في افريقيا كان لها أثر كبير في انتشار الإسلام، صحيح أن الفاتحين المسلمين لم يجبروا أحداً على الدخول في الإسلام، لكنهم أزالوا العقبات التي كانت تحول دون وصول الإسلام للشعوب، فعندما وصل الإسلام للشعوب الأفريقية وقارنت بينه وبين معتقداتها، اعتنقته رغبة وقناعة تامة، وأصبحوا دعاة غلى دينهم الجديد[28].

– **الطرق الصوفية**: كان للطرق الصوفية أثر واضح في انتشار الإسلام، ومنها: الطريقة الشاذلية، أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي في القرن 13 الميلادين ودخلت السودان عام 1445م، وعملت على نشر الإسلام هناك. الطريقة القادرية تأسست في القرن 12 الميلادي في بغداد ثم انتقلت هذه الفرقة وسط افريقيا ثم إلى الشمال الأفريقي. الطريقة التيجانية أنشاها أبو العباس التيجاني عام 1782م في مدينة فاس بالمغرب، وأطلق على أتباعه لقب "الأحباب"، وأخذ الأحباب ينشرون دعوتهم في الصحراء الكبرى. الطريقة السنوسية أنشأها الفقيه الجزائري سيد محمد السنوسي عام 1842م في منطقة الجبل الأخضر في ليبيا، وانتشرت السنوسية في شمال إفريقيا كله، وامتدت زواياها من مصر إلى مراكش[29].

– **الدعاة والمعلمون**: كان الداعي المسلم يتعقب الجندي الفاتح، يدعو الناس إلى الإسلام، فلقد حرص الخلفاء المسلمون على اختيار طائفة من الفقهاء ليعلموا البربر فرائض الإسلام ويفسروا آياته[30].

– **التجارة**: إذا دخل تاجر مسلم قرية وثنية فإنه سرعان ما يلفت انتباه الناس بكثرة وضوئه، وانتظامه بالصلاة في أوقات معينة بنظام تام وخشوع لافت، هذا فضلاً عن الأخلاق الحميدة التي يتمتع بها، مما يستميل القلوب إليه ويفرض احترامه وثقة الناس به، فيقبلون على اعتناق معتقداته وأفكاره[31].

– **الهجرات القبلية**: لعبت تحركات القبائل وهجرتها دوراً عظيماً في نشر الإسلام في أفريقيا، وكانت أغلبها شعوب بدوية غير مستقرة، تنتقل من أوطانها انتقالاً فصلياً، أو تهجر هذه الأوطان لأسباب اقتصادية. كان لهجرات البربر أثر عظيم في نشر الإسلام في غرب أفريقيا[32].

5. التعليم الإسلامي ببلاد الحبشة:

يعتبر القرن الثالث عشر الهجري عصر ازدهار الحركة العلمية في الحبشة للمسلمين، في حين أن النصارى لم يستيقظوا من ظلمات الجهل الذي ضربت عليهم الكنيسة الأرثودكسية حتى القرن الرابع عشر الهجي عندما أدخل الامبراطور منليك التعليم العصري[33]، برزت في القرن الثالث عشر الهجري مراكز علمية إسلامية أصبحت فيما بعد أي في القرن الرابع عشر مقصدا للعلم مثل داوى ووللو وهرر وجما ثم فيما بعد عرسى (بالي وديدأ).

1.7. طريقة التعليم في بلاد الحبشة:

تعتبر الطريقة المتفق عليها في مختلف أنحاء الحبشة في كيفية التدريس بالمجالس العلمية، أن يجلس الشيخ للطلاب في المسجد وقد يكون جامعا أو غير جامع أو تخصص خلوة أو بيت بجانب المسجد، وهذا هو الغالب، ثم يأتي إليه الطلاب بالأدوار أفرادا ومجموعات وذلك من الصباح الباكر إلى صلاة المغرب[34].

أما عن كيفية إلقاء الدروس، أن يقرأ الطالب المتن أو النص على الشيخ كلمة كلمة ثم يترجم له الشيخ ترجمة حرفية إلى اللغة المحلية، ثم يشرح له المعنى العام، ويكون بيد الشيخ غالبا شرح للكتاب الذي يقرؤه الطالب، فيشرح أو يفسر مستيعنا بالشرح أو الحاشية، إلا إذا كان الطالب مبتدئا يقرأ المختصرات، فلا يحتاج إلى التوسع في الشرح بل يكفيه إذا فهم العبارة القصيرة للنص، فإذا أخذ كل فرد أو مجموعة حصته اليومية وتسمى "مادة" يتنحى بعيدا عن الشيخ فيراجع ما أخذ والغالب أن يكونوا مجموعة فيتباحثون الدرس جماعيا ويسمى هذا الأسلوب "مقابلة"، فينتشرون في ضواحي المجلس تحت الأشجار، وفي بعض الأماكن تعمل زوايا صغيرة متعددة حول المجلس للطلاب، ويتحكم الشيخ في الوقت حسب كثرة الطلاب أو قلتهم، بحيث يتمكن من استيعابهم يوميا، حتى لا يرجع أي طالب إلى بيته إلا وقد أخذ درسا جديدا، فإذا كثر الطلاب وزاد عددهم بحيث لا يتسع الوقت المتاح للدروس يضطر الشيخ إلى تصنيفهم وضم بعضهم إلى بعض

حسب تقاربهم إذا كانوا في الكتاب الواحد، فيجمعهم الشيخ على مكان واحد من الكتاب ويصيرون رفقاء فتكفيهم عند الشيخ حصة واحدة. فيكون الدرس بالنسبة للذي رجع إلى الخلف مراجعة، وأما الذي تقدم فيصفي ما تجاوزه من الموضوعات، وتسمى "تركة" بالمطالعة ممن فوقه أو من الشيخ في أوقات الفراغ، وينتهز أي فرصة لتركته[35].

ومما يزيد الطالب رسوخا في العلم وتعمقا في الفهم تدريسه للآخرين من زملائه الذين هم أقل منه علما، وهي فرصة للنابغين لممارسة التدريس وهم في مرحلة التعلم ومتعة لإبراز المقدرة العلمية.

2.7. أهم العلوم والمذاهب المنتشرة في بلاد الحبشة:

من بين أنواع العلوم الرئيسية في مجالس العلم بالحبشة خلال القرن الرابع عشر الهجري هي الفقه ثم النحو والصرف أو علم اللغة أو علم الآلة كما يسميه البعض، ثم التفسير وعلم الحديث، وهذه العلوم هي التي إذ أتقنها الدارس عرف تمكنه وتأهله للتعليم، أما العلوم الأخرى مثل المنطق والبلاغة والعروض وعلم الفلك والتصوف فيدرسها الطالب للاستفادة والاستكمال، ولم ينتشر علم الحديث رغم أهميته إلا في العقدين الأخيرين من القرن الرابع عشر الهجري[36].

وتعتبر هرر مصدر علم الحديث بالحبشة، ومنها انتشر إلى سائر أقطار الحبشة، وقد أكد المؤرخون في القرن الرابع عشر الهجري أن الشيخ عبد الله الولينسي هو أول من أدخل علوم الحديث إلى هرر، وأخذ منه علماء هرر المشهورون بهذا الفن مثل الشيخ سعيد كرو والشيخ أحمد بصيره، والشيخ أحمد كرو، والشيخ محمد أمين الهرري المدرس بمكة المكرمة، ولاشك أن مفتي داوود في الشمال أسبق من الولينسي، لكن يبدو أن علماء الشمال في دوي وواللو أهملوا علم الحديث ولم يهتموا بنشره مثل علم الفقه والنحو، وكذلك جما وعرسي وبالي هذا بالنسبة للحلقات في البادية، أما أشهر من نقل علم الحديث إلى المدن وأهمها العاصمة أديس أبابا، فهو الشيخ محمد الرافع وللي الأصل عالم

الحرم المكي ثم المستوطن لأديس أبابا لمدة طويلة، تمكن من التفرغ لنشر علم الحديث من خلال طلابه الكثيرين وخاصة من شمال البلاد.

وهناك علماء عادوا من الحرمين أيضا ونشروا هذا العلم في المدن الأخرى مثل الشيخ حسن غمدا في شاشمني ناشر عقيدة السلف ومشايخ روبي بالي والشيخ الدكتور جيلان خضر غمدا في أديس أبابا، إمام هذا العلم وعلم العقيدة في الحبشة بلا منافس بعد الشيخ محمد رافع، وهو مجاز بالسلسلة من عدد من العلماء المعاصرين. وأكثر المذاهب انتشارا الفقه الشافعي وهو السائد في جميع المراكز العلمية المعروفة إلى جانب الفقه الحنفي في الشمال (وللو وتجراى وما جاورهما)[37].

ويعود كثرة انتشار المذهب الشافعي إلى التواصل الثقافي الذي كان بين الحبشة واليمن، وبينها وبين مصر التي تأتي منها الكتب، أما اليمن فبحكم قربها كان التنقل بين القطرين سهلا عن طريق مضيق باب المندب، فكان اليمنيون يأتون إلى الحبشة للتجارة ويقيمون بها إقامة دائمة ويتزوجون من بنات المسلمين، فأصبحوا أسرا وكثرت بذلك الجالية اليمنية في شتى مناطق الحبشة[38]، وكان من بين أنواع التجارة التي يزاولونها تجارة الكتب الدينية التي يستوردونها من مصر ومعظم هذه الكتب كتب الفروع الشافعية وكتب النحو، وإلى جانب التجارة كان الدعاة والمعلمون العرب في المدارس شافعيين في المذهب[39].

يتوجه العلماء غالبا للتعمق في العلم وأخذ الإجازة إلى بيت زبيد، وذلك قبل أن يشتهر السفر إلى الحرمين من أجل العلم فيما بعد[40]، فيعودون وقد أصبحوا علماء ومفتين وخاصة في الفقه الشافعي، ومن أبرز وأقدم العلماء الذين رحلوا إلى اليمن ثم إلى الحرمين وعادوا بالعلم الغزير بل من أسبقهم مفتي داوود بن أبي بكر، ومن الذين ارتحلوا إلى بيت زبيد ثم الحرمين ثم رجعوا بعد أن درسوا على علمائها ولهم إجازات: الشيخ عمر

الدبرزيتي وإبراهيم الإفاتي وعبد الله الولينسي ومحمد القطيبي البالي ومحمد ثاني الوادي ومحمود القراري...الخ[41].

خاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى مجموعة من النتائج كالآتي:

– إن الهجرة وتنقلات الشعوب طبيعة بشرية مرتبطة بالحياة وتغير الأحوال، ولها سلبياتها من مفارقة الأوطان والأهل والأصحاب ومتاعب التنقل، ولكنها تحمل فوائد وفرصا لنشر القيم والمعارف ونقل الثقافات بين الشعوب، بل تؤدي إلى ترابط البشرية فيما بينها عرقيا ودمويا لتشعر بوحدة المنشأ والمصير.

– تعددت وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ما بين الهجرة والحركات التجارية وتنقلات الدعاة والعلماء، وبهذا اختلفت عن شمالي القارة التي انتشر فيها الإسلام بالفتوحات الإسلامية.

– تميزت الفتوحات الإسلامية بأثرها القوية السريع المؤدي إلى قيام دول وحكومات إسلامية تابعة للخلافة الإسلامية في الغالب.

– بينما تميزت الوسائل السلمية بسهولة الامتداد ببطء وانتشار العلم الشرعي وأثره الثقافي والاجتماعي المستمر إلى الوقت الحاضر.

– إن امتداد الإسلام سلميا في الوقت المبكر من فجر الإسلام جعل لهذا القسم من القارة نصيب من إقامة سلطنات إسلامية مستقلة على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، وهذا رغم اندثار معظمها فقد بقي الأثر عميقا في مكونات شعوب القارة السمراء وجزءا من هويتهم الثقافية والفكرية والاجتماعية.

وفي الأخير يمكن القول إن إلقاء الضوء على بعض الجوانب من تاريخ الإسلام في إفريقيا وعامل انتشاره بالتركيز على الهجرة وأثرها في تكوين المجتمعات المسملة بل والسلطنات والإمارات التي صارت حكومات في بعض الأماكن، هذا ما جعلنا نختار

بلاد الحبشة لما لها سبق في استضافة المهاجرين المسلمين الأوائل من الصحابة ومن بعدهم ظهرت فيها إمارات إسلامية على مر العصور ثم تلاشت وزالت بالحملات الاستعمارية الأوروبية التي تقاسمت إفريقيا وتركت الحبشة بتمكين الزعماء النصرانيين على السلطة، لكن بقي المسلمون أغلبية سكانية متمسكين بدينهم وثقافتهم ولم تصبح الحبشة جزيرة مسيحية كما يحلم بها المتعصبون، بل تجدها اليوم متميزة بكثرة علمائها وانتشار مجالس ومراكز العلم في ربوعها، وهذا بسبب انتشار العلم ومراكزه ودور العلماء والدعاة في الحفاظ على دين الإسلام بتحمل المشقات ومواجهة التحديات.

الهوامش:

[1]- S.W.Budge Ahistory of Ethiopia, Methuen and Co, vol 1, Londond, 1928, P120.

[2]- أحمد الحفني القنائي الأزهري، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، 1904، ص182.

[3]- ت.و أرنولد وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تح: أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد، مركز الشارقة للإبداع الفكري، بيروت، 1998، ص282.

[4]- المرجع نفسه، ص282.

[5]- راشد البراوي، الحبشة بين الأقطاع والعصر الحديث، مكتبة النهضة، مصر، 1961، ص10.

[6]- ممتاز العارف، الأحباش بين مأرب وأكسوم: لمحات تاريخية مع العلاقات العربية الحبشية ونشوء أثيوبيا الحديثة، المكتبة العصرية، بيروت، 1985، ص84.

[7]- J.Spenser Trimingham, Islam in Ethiopia, Madison Ave, New York, 1965, P55-56.

[8]- ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، مصر، 1992، ص50-51.

[9]- فتحي غيث، الإسلام في الحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1900، ص66-67.

[10]- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، تر: حسن إبراهيم وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1970، ص132.

[11]- دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، شركة الطباعة المتحدة، الموصل، العراق، 1985، ص193.

[12]- المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1995، ص09.

[13]- توماس أرنولد، المرجع السابق، ص135.

[14]- المرجع نفسه، ص135.

[15]- شهاب الدين أحمد ورينيه باسيه، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، تح: فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص281.

[16]- توماس أرنولد، المرجع السابق، ص390.

[17]- المرجع نفسه، ص390.

[18]- أبي القاسم عبد الرحمن، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ص188-189.

[19]- المقريزي، المرجع السابق، ص270.

[20]- محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مرا: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007، ص274.

[21]- محمد عبد الله النقيرة، انتشار الإسلام في إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض، 1982، ص262.

[22]– عبد الله خضر، الثقافة الإسلامية في الحبشة والتحديات الموجة إليها في القرن الرابع عشر الهجري، المنتدى الإسلامي، السعودية، 2004، ص222.

[23]– توماس أرنولد، المرجع السابق، ص390.

[24]– نفسه، ص391.

[25]– نفسه، ص392.

[26]- Bishod Crowther, on Islam in Westen Africa, Church Missionary Inteligecer, London, 1988, P254.

[27]– توماس أرنولد، المرجع السابق، ص199.

[28]– سليمان العودة، الهجرة الأولى في الإسلام، دار طيبة، الرياض، 1419هـ، ص34.

[29]– علي الصلابي، السيرة النبوية، دار ابن كثير، بيروت، 2004، ص271-276.

[30]– محمد أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، 1996، ص48-49.

[31]– علي الصلابي، المرجع السابق، ص288.

[32]– رولاند أولفير وجون فيج، موجز تاريخ إفريقيا، تر: دولت صادق ومحمد السيد غلاب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1991، ص132.

[33]– يوسف أحمد، الإسلام في الحبشة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص62.

[34]– عبد الله خضر، المرجع السابق، ص142.

[35]– المرجع نفسه، ص143.

[36]– يوسف أحمد، المرجع السابق، ص62.

[37]– المرجع نفسه، ص62.

[38]– نفسه، ص231-232.

[39]– عبد الله خضر، المرجع السابق، ص144.

[40]– أنظر: البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم الإسلامي، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، 1399هـ، ص531.

[41]– عبد الله خضر، المرجع السابق، ص145.